التَّنوير ليس غربيًّا
نقد الذِّهْنيَّة الاستعماريَّة وثقافة الاستعلاء

كنزة القاسمي*

مقدّمة

يقصد هذا البحث الإضاءة النَّقديَّة على الآثار المعرفيَّة والثَّقافيَّة والاجتماعيَّة الَّتي تركها التَّدفُّق الاستعماريّ على المجتمعات العربيَّة والإسلاميَّة منذ أواخر القرن التَّاسع عشر مرورًا بالمرحلة الكولونياليَّة الحديثة الَّتي تلت سقوط الإمبراطوريَّة العثمانيَّة بداية القرن المنصرم، كما تتعرّف الباحثة إلى ظاهرة التَّغريب بشقَّيها الطوعيّ، والقسريّ الَّتي سادت في عالمنا، ولم تزل سارية إلى يومنا هذا.

يعتقد كثيرون أنَّ التَّنوير والعقلانيَّة والتَّحضُّر، هي خصوصيَّات غربيَّة، ولا علاقة للمجتمعات العربيَّة والإسلاميَّة بها. نلاحظ أيضًا أنَّ في مجتمعاتنا من يمضي إلى الأخذ بذهنيَّة التّبخيس الغربيّ، وقبول الوضعيَّات الدُّونيَّة أمامه، عبر سلسلةٍ من المواقف والممارسات المُهينة الَّتي يتبنَّاها بعض الأفراد والمُؤسَّسات.

أمَّا في المجتمعات الغربيَّة، فإنَّ العنصريَّة والتَّعالي على العربيّ المسلم؛ بل واتِّهامه المُستمرّ بوصفه إرهابيًّا بالضّرورة، إضافة إلى نعته بمختلف النّعوت المشينة، هي أمور أصبحت شائعة في البرامج والأفلام والكوميديا، واعتاد عليها المواطن

* رئيسة شعبة علم الاجتماع، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، جامعة ابن زهر، المغرب.

في مُمارساته اليوميَّة داخل المجتمعات الغربيَّة، ناهيك عمّا يتمُّ تبنِّيه من اختياراتٍ في السِّياسات الخارجيَّة. كلّ ذلك، وغيره، يضع المُثقَّف العربيّ أمام مسؤوليَّة إعادة قراءة مسارات مجتمعاتنا؛ بهدف بلورة أُفق جديد وإنتاجه، ووضعيّة حضاريَّة خلَّاقة نستحقّها بين الأُمَم.

مسارات التَّغريب

يتوضّح لنا اليوم عبر الملاحظة المباشرة لِمُجريات الأحداث والتَّحوُّلات في عالمنا المعاصر أنّ الدول العظمى اقتصاديًّا هي القادرة على بناء التَّحالفات الكبرى والتَّحكُّم في سير السِّياسات الدَّوليَّة، ورسم الخطط الإستراتيجيَّة الماكرودوليَّة. في حين يترسَّخ في مجتمعات عالمنا العربيّ الإسلاميّ تمثّل للذّات وللآخر الغربيّ، تمثّلٌ يعكس الواقع المُتأزّم؛ بل ويعيد إنتاجه. ونلاحظ نوعًا من تبخيس الذَّات والانبطاح أمام الآخر، كما لو أنّ الغربيّ هو الأذكى، أو كأنّه قادم من كوكبٍ آخر، ويواكب ذلك تبخيس لثقافتنا، وحضارتنا، ولغتنا، ثمّ العزوف عنها جميعًا.

يطرح الوضع المُتأزّم في العالمين: العربيّ، والإسلاميّ مسألة الهُويّة، وحقوق المواطنة، والعلاقة بالعالم الغربيّ، وتمثّل الذّات في مواجهة الآخر، وضرورة تفعيل دور المُثقّف الغائب من أجل التَّنوير والتّثوير، وإعادة البناء.

فكانت الأسئلة الآتية منطلقًا لبحثنا هذا:

- لماذا يتقدَّم الآخرون في حين نتأخَّر نحن؟
- هل التَّنوير خصوصيَّة غربيّة؟
- هل الغربيّ أذكى من العربيّ؟
- كيف تمّ التّطبيع مع التّبخيس؟

قد تبدو هذه الأسئلة كلاسيكيَّة في ظاهرها، لكنّها تظلّ شرعيَّة وضروريَّة في ظلّ الواقع المعيش حاليًّا بكل المجتمعات العربيَّة الإسلاميَّة.

للإجابة عن هذه الأسئلة، كان لا بُدَّ من ربط الماضي بالحاضر، والتَّذكير ببعض المحطَّات المُهمّة الَّتي عرفتها مسارات مجتمعاتنا؛ لنوضح أكثر حجم المُفارقات الكبرى الَّتي نتعايش معها اليوم في مُجتمعاتنا العربيَّة والإسلاميَّة بعد كلّ المحطّات التَّنويريّضة الَّتي عشناها، دون إغفالنا ترك بوّابة الأمل مُشرّعة لبناءِ غدٍ أفضل.

يمكننا أن نلاحظ اليوم، وفي بدايات القرن الحادي والعشرين، أنّ العالم يعيش

تحوُّلاتٍ كبرى أساسها الثَّورة الرّقميَّة، وتداعيات العولمة عبر وسائل الاتّصال الَّتِي جعلت العالم يتحوَّل فعلًا إلى قريةٍ صغيرة. ومِنْ ثَمَّ، كان لنا حظّ معاصرة تلك الثَّورة الرقميَّة الَّتِي شكّلت نقلةً نوعيَّةً عرفتها البشريَّة، إنَّها ثورة تكنولوجيَّة من نوع جديدٍ غير مسبوق. فبناءً على معطيات التَّفاعل الاجتماعيّ مع آليّات تلك التكنولوجيا، الَّتِي نرصدها عن كثب، نتوقّع حدوث تحوُّلات جذريَّة عميقة وغير مسبوقة، ستتغير بفعلها معالم الحضارة البشريَّة؛ بل والمنطق المُتبنّى سابقًا بصفة كلّيّة، إنّها فرصة غير مسبوقة بالنّسبة إلى مجتمعاتنا لإحداث التَّنوير والتّثوير عبر تشكيل قوّة اقتراحيّة ترافعيَّة سلميّة يقودها المثقّفون، ويتبنّاها الشباب؛ لتستجيب لها الإرادة السّياسيَّة.

إضاءات التَّنوير في العالم العربيّ الإسلاميّ

إذا كان التَّنوير في القرن الثّامن عشر قد ارتبط في الغرب بفلاسفة ومفكّرين أعلوا من قيمة الإنسان المواطن، ومن فكره وعقله، وما واكب تلك الحركيّة من ثوراتٍ وتطوُّر تكنولوجيّ، وأحداث رمت إلى تغيير واقع المواطن الغربيّ والتّأسيس لحداثته... فإنَّ أُسُس التَّنوير، الَّتِي هي العقل والعقلانيَّة، ليست خصوصيَّة غربيَّة؛ بل ما تلا عقلانيَّة الفكر من ثورات، وفصل للسّلطات، ومأْسَسَة لحقوق المواطنة هو ما يُعدُّ خصوصيَّةً تاريخيَّةً غربيَّة. فقد انبثقت عن عقلانيَّة التَّنوير في القرن الثامن عشر قطيعة إبستيمولوجيَّة مع الموروث اللَّاعقلانيّ الدّوغمائيّ.

لم يكن الغرب وحده من يملك فكرًا تنويريًّا عقلانيًّا ضمن ثقافته، فهناك حضارات أخرى قديمة وعريقة عرفت التَّنوير والعقلانيَّة. فالفلسفة الإغريقيَّة الَّتِي استوحى منها الغرب تنويره، بلغت العالم الإسلاميّ عندما استقرّ الأمر في مركز الإمبراطوريّة الإسلاميَّة ببغداد بعد دمشق، وحين أسّس الخليفة المأمون في العام 832 م بيت الحكمة الَّذِي كان مكتبة كبرى، ومركزًا للتّرجمة، فكان من ثمارها نقل العلوم والفلسفات والآداب من اللُّغة الإغريقيَّة، ولغات أخرى إلى اللُّغة العربيَّة.

في ذلك الحين، كان البلد الإسلاميّ يضمّ بلدانًا تأثَّرت بالثَّقافة الإغريقيَّة؛ وهي مصر، وسوريا، وبلاد فارس. فانتشرت بذور التَّنوير والعقلانيَّة والفكر الحرّ بين المسلمين؛ ما جعل الكثير منهم يتبنَّى تمثُّلات متناقضة مع الفكر الرّسميّ السّائد، ويُجاهر بأفكار معارضة للمُقدّس السِّياسيّ والدّينيّ، أفكارٌ عملت على التّشكيك في المُسلَّمات، وتعرية المتناقضات.

باسم شرعيَّة الاجتهاد، امتلأت السَّاحات والمساجد والدُّور بالغليان الفكريّ، وصخب النِّقاش الحرّ المنفتح على آفاق رحبة من التَّأمُّل، وإعادة النَّظر،... فأبدع الشعراء، والكتَّاب، والفلاسفة، والمُتصوِّفة؛ فكان فكرًا حرًّا مُوَجّهًا صوب الموروث والسَّائد، وجاء إبداع ثُلَّة كبيرة من المُثّقفين هادفًا إلى تحرير العقل، وتنوير المواطنين[1].

إذا كان مفهوم «العقل» هو أساس التَّنوير في الغرب، فإنَّ إحدى أشكال ذلك المفهوم كانت حاضرة في العالم الإسلاميّ، حيث فكّر المعتزلة ونظروا وجادلوا باسم إعلاء سُلطة العقل والعقلانيَّة، فكان التَّأويل جادتهم، كما رفضوا كثيرًا من الأحاديث المنسوبة إلى الرسول، والَّتي لا يقبلها العقل، فَعَدُّوها موضوعةً وغير صحيحة الإسناد[2]. ونلاحظ كذلك حضورًا للأنسنة بوصفها إحدى خصائص التَّنوير في حضارتنا[3]، حيث كان الإنسان في مركز الاهتمام فكرًا ومُمارسةً، فقد رصدت كلّ من ثورة القرامطة، وثورة الزّنج بالعراق تحقيق إنسانيَّة الإنسان وتحريره من العبوديَّة[4]. وقام المُتصوِّفة أيضًا بدورهم في التَّعبير عن إحدى أشكال الأنسنة عبر جعلهم الإنسان يتموقع في مركز الكون، فقد تمَّ رفعهُ إلى مرتبة عُليا تُضاهي مرتبة الألوهيَّة عبر مفاهيم الاتّحاد، والفناء، والحلول، والإنسان الكامل[5]. كما ذهب بعض المُتصوّفة إلى الاعتقاد بوحدة الدّيانات وبالتّسامح في علاقة بعضها ببعض، واحترام الاختلاف[6].

ذهب «الشكاك» أيضًا إلى تبنّي الشَّكّ العقلانيّ في كلّ المعتقدات السَّائدة[7]،

1- Kanza Kassimi, Des manifestations de la libre pensée dans le monde arabo-musulman, Presses Universitaires Lille ,France, 2009.

2- المصدر نفسه، ص 14.

3- المصدر نفسه، ص 15.

4- A. Badawi, «L'humanisme dans la pensée arabe», in Revue StudiaIslamican°VI, presses de A. Bontemps, 1957, Paris, France.

5- Kanza Kassimi, Des manifestations de la libre pensée dans le monde arabo-musulman, op.cit, pp (163-170-163).

6- Ibid, pp. (168-169).

7- Ibid, p. 226.

كما أكّد الباحث عبد الرحمن بدوي بأنّ برزويه هو شخصيّة فريدة استطاعت الانتباه إلى أهمّيّة استعمال الشّك من أجل الوصول إلى اليقين العقلانيّ[1]. هذا واخترق الفكر التّنويريّ أشكالًا مُتعدّدة من التّجلّيات منها التنظيريّ، ومنها العمليّ عبر حركات ثوريّة ناضلت لأجل حقوق الإنسان. فتنوّعت أشكال العقلانيَّة في العالمَيْن: العربيّ، والإسلاميّ وتمظهراتها، منها الفلسفيّ المُتأثِّر بالفلسفة الإغريقيّة، وثقافات العوالم الَّتي تمَّ اكتساحها[2]، ومنها النّابع من شرعيّة الاجتهاد والتّأويل للنّصّ القرآنيّ. لكن، وعلى الرّغم من ذلك الغليان التّنويريّ في العالم الإسلاميّ، فقد حلّت الدوغمائيَّة مكان التّنوير واستمرّ الأمر لمدّة طويلة لاحقة...

تداعيات الاصطدام بالعالم الغربيّ

بعد سنين طوال من الدوغمائيَّة، اصطدم العالمَيْن: العربيّ، والإسلاميّ بالغرب عبر آليَّات استعماريَّة أنتجت اختيارات مُتباينة من المحاولات للتَّصدِّي وللنُّهوض... ويمكن أن نتبيَّن تلك الوضعيَّة عبر المحطَّات التَّاريخيَّة الآتية:

أولا: مصر بعد دخول نابليون بونابارت:

عرفت مصر بعد دخول نابليون بونابارت سنة 1798 صدمة مواجهة المستعمر الغربيّ الَّذِي استقرّ لمدّة ثلاث سنوات استطاع خلالها إنتاج التّأثير الَّذِي انعكس على البِنْيات: السِّياسيَّة، والاجتماعيَّة، والثَّقافيَّة.

ففي العام 1805م، استطاع محمد علي الوصول إلى السُّلطة، وبدء العمل على إصلاح بِنْيَات الإنتاج الفيودالي، وتخفيف سلطة علماء الدّين، وتحديث الاقتصاد المرتكز على الصّناعة والفلاحة، كما قام بإرسال البعثات العلميّة إلى خارج الوطن[3].

في ظلِّ تلك الظُّروف بزغ وعي وطنيّ يسعى إلى التَّغيير، ومساءلة واقع الحال العربيّ الإسلاميّ ومقارنته بالحضارة الغربيَّة. فنشأ تيّار سلفيّ في مصر بقيادة محمد عبده، ورشيد رضا في محاولة للتَّوفيق ما بين الحداثة الغربيَّة والموروث

1- A. Badawi, revueIslamica n° VI, op.cit, p. 176.

2- محمد عبد الحميد حمد، الزندقة والزنادقة تاريخ وفكر، دار الطليعة الجديدة، دمشق، 1999م.

3- عبد الصمد بلكبير، النَّهضة وشروطها التَّاريخيَّة، في جريدة: الجامعة (جريدة مغربية)، العدد الأوّل، شتنبر 1982، ص 5.

الثَّقافيّ الإسلاميّ لغاية تحديث المجتمع، وجعله يواكب التَّحدِّيات، ويتجاوز وضع الانحطاط. كما ظهر بمصر آنذاك أيضًا تيّار ليبراليّ راديكاليّ يدعو إلى التَّماهي مع الحضارة الغربيَّة، والتَّخلِّي عن انتماء مصر التّاريخيّ إلى المشرق وإلى العالمَيْن: العربيّ والإسلامي عامّة. فكان في قيادة ذلك التَّيَّار كلّ من شبلي الشميل (من أصل لبنانيّ)، وأديب إسحاق (من أصل سوريّ)، وفرح أنطوان (من أصل لبنانيّ)، وسلامة موسى، وطه حسين عبر كتابه «مستقبل الثَّقافة بمصر».

ثانيا: نهاية عهد الخلافة السّياسيَّة:

عُدَّت نتائج مشاركة الإمبراطوريَّة العثمانيَّة في الحرب العالميَّة الأولى كارثيَّة، فبعد هزيمتها وتبيّن ضعفها أمام الغرب، انتهى الأمر بدخول الاستعمار إلى العالم العربيّ الإسلاميّ وتجزئته.

في ظلِّ تلك الأوضاع الجديدة، عمل مصطفى كمال أتاتورك على تنظيم الثَّورة على منظومة الخلافة الإسلاميَّة لتحرير تركيا وجعلها جمهوريَّة حداثيَّة علمانيَّة على غرار الأنظمة الأوروبيَّة. فكان البدء انطلاقًا من تقليص سُلطات الخليفة وجعلها تقتصر على السُّلطة الروحيَّة، في نوفمبر 1922، ثمّ تلا ذلك إنهاء عهد الخلافة في الثالث من مارس 1924.

عمل مصطفى كمال أتاتورك، بعد ذلك، على قطع علاقة تركيا بالعالم العربيّ والمشرقيّ، فعوض الحروف العربيَّة بالحروف اللَّاتينيَّة، ومنع استعمال اللُّغة العربيَّة، والحجاب، وكذا التَّعدُّد في الزّواج. كما عوض كمال أتاتورك التّشريع الإسلاميّ بالقانون الوضعيّ الغربيّ، وتبنَّى الجمع بين القوانين الآتية: القانون السويسريّ المدنيّ، والقانون الجنائيّ الإيطاليّ، والقانون التجاريّ الألمانيّ. ووضع أتاتورك حدًّا لتدريس الدِّين بالمدارس العموميَّة، كما أنهى اعتماد المحاكم الإسلاميَّة. أمَّا الشعوب الإسلاميَّة فقد عاشت التّجربة كما لو أنّها انهيار شامل لها[1].

ثالثا: حقبة الحداثة وتجزئة العالم العربيّ الإسلاميّ:

تعرَّضت الدُّول العربيَّة الإسلاميَّة إلى الهيمنة الاستعماريَّة الغربيَّة، وكانت النّتيجة هي «بداية الاصطدام مع شروط غير مسبوقة ونقطة انطلاق لتحوُّلات عميقة

1- Abdou Filaly- Ansary, L'Islam est-il hostile à la laïcité?, éd Fennec, Casablanca, 1999, page 53.

بالمجتمع العربيّ الإسلاميّ، امتدَّت لتشمل رؤيته إلى نفسه وإلى العالم»[1]. فكانت الهيمنة الاستعماريَّة الغربيَّة المباشرة على الأراضي العربيَّة الإسلاميَّة كما يلي[2]:

- الجزائر: من 1830 إلى 1962: أي 132 سنة من الاستعمار الفرنسيّ.
- الإمارات العربيَّة المُتَّحدة: من 1892/1916ـ1971، أي 79 سنة من الاستعمار البريطانيّ.
- مصر: 1798ـ1801 من طرف فرنسا. ثم 1882ـ1936 من طرف المملكة المتَّحدة، إضافة إلى عشرين سنة من الحضور العسكريّ الإنجليزيّ بقناة السويس من 1936 إلى 1956.
- العراق: من 1920 إلى 1932، أي 12 سنة من الاحتلال البريطانيّ.
- الأردن: من 1922 إلى 1946، أي 24 سنة من الاحتلال البريطانيّ.
- الكويت: من 1899 إلى 1961، أي 61 سنة من الاستعمار البريطانيّ.
- لبنان: من 1920 إلى 1946، أي 26 سنة من الاحتلال الفرنسيّ.
- ليبيا: من 1912 إلى 1951، أي 40 سنة من الاحتلال الإيطاليّ.
- موريتانيا: من 1907 إلى 1960، أي 53 سنة من الاحتلال الفرنسيّ.
- السودان: من 1898 إلى 1956، أي 58 سنة من الاحتلال البريطانيّ.
- سوريا : من 1920 إلى 1946، أي 26 سنة من الاحتلال الفرنسيّ.
- تونس: من 1881 إلى 1956، أي 75 سنة من الاحتلال الفرنسيّ.
- اليمن (الجنوب): من 1839 إلى 1967، أي 128 سنة من الاحتلال البريطانيّ.
- المغرب: من 1912 إلى 1956، أي 44 سنة من الاحتلال الفرنسيّ.

محطات تثويريَّة لم تكتمل من «النّهضة» إلى «ربيع العربيّ»[3].

بلغ السِّجال الفكريّ مرحلةً مُتقدِّمةً في العالمَيْن: العربيّ والإسلاميّ؛ نتيجة للاصطدام بالغرب عبر الاستعمار، أو عبر البعثات العلميَّة إليه. يظهر ذلك عبر تيَّارات مُتباينة التَّوجُّهات، وكان الهدف هو تعميم التَّنوير حينًا، والتَّصدِّي للنّكسة

1- Ibid, page 51.

2- François Burgat, L'Islamisme en face, Découverte, Paris, 1996, page 24.

3- «الربيع العربيّ» هي تسمية أسندت إلى تلك المحطة التثويريّة من طرف الإعلام الغربيّ، فتبنّاها الأغلبيّة، لكن هناك تباين في الرُّؤى حولها.

حينًا آخر. ونستطيع، في هذا الصَّدد، الإشارة الإجماليَّة إلى عدد من تلك التَّيَّارات الَّتِي نشأت بوصفها ردَّةَ فعل على الهيمنة والاحتلال الغربيّ المباشر:

1. التَّيَّار الاصلاحيّ بوصفه تتويجًا لإصلاحات محمد علي:

قام بقيادة ذلك التَّيَّار مجموعة من المُثقَّفين من مناطق عدَّة، مثل: الطهطاوي، وخير الدين التونسيّ، والأفغاني، ومحمد عبده، والكواكبي، ورشيد رضا،... فتجلَّت القواسم الفكريَّة المشتركة بين هؤلاء المُثقّفين في ما يلي:

أ. ضرورة فتح باب الاجتهاد كَوْن إقفاله هو أساس نكسة الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة. لكنّهم اعتقدوا أنّ العودة إلى أصول الدّين الإسلاميّ وبالأخصّ إلى القرآن خطوة ضروريّة لإعادة النَّظر والتَّأويل بشكلٍ يتوافق ومُستجدَّات الحداثة.

ب. إنّ الإسلام ليس ضدّ العقل، ولا ضدّ الاكتشافات العلميَّة؛ بل إنّه يدعو إلى استعمال العقل، وإلى البحث العلميّ في كلّ المجالات، ودون أيّ حدود.

ج. إنّ المبادئ السِّياسيَّة الحديثة وحقوق الإنسان، وكذا الانتخابات والمُؤسَّسات السِّياسيَّة، مثل: البرلمان، هي جزء من مبادئ الإسلام، كَوْن الشّورى ركيزة المنظومة «الديموقراطيَّة الإسلاميَّة»، وأنّ الإسلام مؤسّس لمنظومة سوسيوسياسيَّة حداثيّة لا تضاهيها أيّ منظومة[1].

2. التَّيَّار التَّحديثيّ:

نتج ذلك التَّيَّار هو الآخر عن البعثات العلميَّة الَّتِي سافرت بهدف الدِّراسة إلى الغرب في عهد محمد علي، وقد لوحظ أنّ لديهم نوعًا من الإعجاب الكبير بالغرب لدرجة الدَّعوة إلى التَّماهي مع الحضارة الغربيَّة، وهو ما لوحظ لدى كل من طه حسين، وعباس محمود العقَّاد، وسلامة موسى، وشبلي الشميل، وأديب إسحاق، وفرح أنطوان، وغيرهم[2]...

في ظلِّ النّتائج المُدمّرة للحرب العالميّة الأولى، إضافة إلى استمراريّة الاستعمار للأراضي العربيَّة وثورة كمال أتاتورك، نشأت أحزاب سياسيَّة في العالم العربيّ منها: الشُّيوعيَّة، والاشتراكيَّة، والقوميَّة اللائكيَّة. وجميعها ترتكز على التَّنظير

1- Mohamed Chérif Ferjani, Islamisme laïcité et droit de l'homme, Harmattan, Paris, 1991, pp158-159.

2- Ibid, page 173.

الفكـريّ بوصفهـا مرجعيّـات لفلسـفتها وإسـتراتيجيَّاتها، فـكان هنـاك أحـزاب، مثـل: حـزب البعـث السـوري اللُّبنانـي والعراقـي، وتيَّـارات الضُّبّـاط الأحـرار....

فـي السِّـياق نفسـه، انبثـق التَّطـرُّف مـن عمـق التَّيَّـار الاصلاحـيّ؛ ليتبنَّـى مواقـف وردود أفعـال مُتباينـة.

التَّطرُّف الإسلاميّ بوصفه مُحرّكًا للمواجهات

ربـط العديـد مـن الباحثيـن نشـأة التّطـرُّف الإسـلاميّ، الَّـذِي رفـض التّدخُّـل الاسـتعماريّ فـي الـدُّول العربيَّـة الإسـلاميَّة، بانتهاء عهـد الخلافة وكذا بنزعة الاسـتغراب لـدى بعـض النّخـب الثَّقافيَّـة والسِّياسـيَّة[1].

يؤكِّـد الباحـث المغربـيّ عبـدو الفيلالـي الأنصـاري، بـأنَّ هنـاك ترابطًـا مـا بيـن موعديـن أساسَـيْن، همـا: سـنة 1925م، تاريـخ إصدار كتاب «الإسـلام وأصـول الحكم» لمؤلّفـه علي عبـد الـرازق، وسـنة 1928م، تاريـخ نشـأة حركـة الإخـوان المسـلمين على يـد حسـن البنـا، وهـو الحـدث الَّـذِي سـيفجّر ديناميَّـة جديـدة بالمجتمعـات المسـلمة، أساسـها الدعـوة إلـى العـودة إلـى إسـلام السَّـلف[2]. ثـمَّ ترسّـخ ذلـك التَّطـرُّف بعـد تطـوُّر المواجهـة بيـن أنصـاره المُتشـبّثين باسـترجاع الخلافـة الإسـلاميَّة بوصفهـا رمـزًا للأُمَّـة، ونظـام حكـم جمـال عبـد الناصـر الَّـذِي نفَّـذ حُكـم الإعـدام فـي حـق سـيّد قطـب سـنة 1966م. ثـمَّ توالـت بعـد ذلـك المُواجهـات، وتزايـد الاقتتـال بيـن المسـلمين؛ بسـبب تسـييس الدِّيـن، وتقديـس السِّياسـة، وهـو مـا يذكّـر بأحـداث الفتنـة الكبـرى.

فـي ظـلِّ تلـك المواجهـات، اسـتمرّت الهيمنة الاسـتعماريَّة، المباشـرة وغير المباشـرة، وتجلّـت فـي تقسـيم العالـم الإسـلامي، والنَّيـل مـن رصيـده الحضـاريّ والثَّقافيّ، وسـيادته المادّيّـة والرّمزيَّـة، وتلاشـت بعدهـا بالتّدريـج أحـلام القوميّـة العربيَّـة والوحـدة العربيَّـة؛ بـل تـمّ ترسـيخ انشـطار الهُويَّـة العربيَّـة الإسـلاميَّة، وتبخيـس التّـراث الثَّقافـيّ المـادّيّ واللَّامـادّيّ... لتهاجـر الأدمغـة بعـد ذلـك بكثافـة إلـى الغـرب... وليسـتمرّ النّزيـف والهـروب مـن مواجهـة البحـث عـن حلـول لمشـكلة السّـيادة المهانـة، والهُويّـة المُنـكّل

1- نزعـة الاسـتغراب: هـي نزعـة تميـل لتفضيـل الغـرب علـى الشـرق؛ بـل تنظـر إلـى الغـرب علـى أنّـه منبـع الحضـارة.(www.almaany.com).

2- Abdou Filaly Ansary, l'introduction de la traduction de « l'islam et les fondements du pouvoir » de Ali Abderrazik, éd Fennec, Casablanca, 1984, PP 36-37.

بهـا في ظـلّ التّحدِّيـات الجديـدة المرتبطـة بالعولمـة والثّـورة الرّقميَّـة، والإدارة العموديّـة الأُحاديَّـة للسِّياسـات الإسـتراتيجيَّة بالعالـم، المفروضـة قسـرًا...

جـاء المُسـمّى «ربيـع عربـيّ» عبـر كرونولوجيـا حـركات احتجاجيّـة عرفتهـا مجموعة مـن الـدول العربيَّـة الإسـلاميَّة، منهـا مـا يلي[1]:

- 17 ديسمبر 2010: بداية الاحتجاجات في تونس.
- بداية يناير 2011: بداية الاحتجاجات في الجزائر.
- 7 يناير 2011: بداية الاحتجاجات في الأردن.
- 25 يناير 2011 : بداية الاحتجاجات في مصر.
- 27 يناير 2011: بداية الاحتجاجات في اليمن.
- 14 فبراير 2011: بداية الاحتجاجات في البحرين.
- 17 فبراير 2011: بداية الاحتجاجات في ليبيا.
- 20 فبراير 2011: بداية الاحتجاجات في المغرب.
- 15 مارس 2011: بداية الاحتجاجات في سوريا.

هنـاك خـلاف حـول سـبب انتقـال عـدوى تلـك الاحتجاجـات إلـى مختلـف دول العالـم العربـيّ الإسـلاميّ، فهنـاك مـن يؤكِّـد أنَّ الأمـر مُتعلِّـق بمؤامـرة مُدبّـرة قبـل تاريـخ انـدلاع الاحتجاجـات بسـنوات، وهنـاك مـن يـرى بـأنّ ذلـك عائـدًا إلـى دَوْرِ شـبكات التَّواصُـل الاجتماعـيّ الَّتِـي سـهَّلت تمريـر خطـاب الثَّـورة والاحتجـاج والتَّنويـر بيـن الفئـات الشَّـابَّة الغاضبـة والمُستاءة مـن أوضاعهـا الفرديَّة والجماعيَّـة ببلدانهـا... وهكذا، فقـد انطلقـت تسـمية الاحتجاجـات بـ «الرَّبيـع العربـيّ» عبـر المواكبـة الإعلاميَّـة الغربيَّة الَّتِـي ربطـت بينهـا وبيـن المُسـمَّى «ربيـع الشُّـعوب» لسـنة (1848)[2]. ولقـد خرجـت تلـك الاحتجاجـات تدعـو إلـى رحيـل القيـادات السِّياسـيَّة، وتنـادي بالشّـغل، ومحاربـة الاسـتبداد، والرّشـوة، والفقـر. وانطلقـت تلـك الشِّـعارات مـن تونـس وهـي تعلـن:

إذا الشَّـعب يومًـا أراد الحيـاة فـلا بُـدّ أن يسـتجيب القـدر.
ولا بُـدَّ للَّيـل أن ينجـــــــلي ولا بُـدَّ للقيـد أن ينكسـر[3].

1- Kanza Kassimi, Le Monde Arabe, Des deux Grandes transitions au nommé «Printemps Arabe», Imprimerie Emoutaki Printer, Mohammedia, Maroc, 2011.

2- Printemps des peuples, 1848.

3- أبيات للشّاعر التونسيّ أبو القاسم الشابي.

على الرّغم من تنوُّع الشّعارات وتعدُّدها لارتباطها بخُصوصيَّة السِّياق والمجال، فإنّها توحَّدت من حيث الهدف الَّذي تلخّص في المطالبة بالتَّغيير.

ولكن النّتائج الَّتي أسفر عنها ما سُمّي بـ «الربيع العربيّ» تطرح الإشكال الآتي:

«هل كانت الحركات الاحتجاجيَّة في المنطقة العربيَّة نواةً، أو مشروعًا لحركات اجتماعيَّة يمكنها أن تسهم في تغيير إيجابيّ بالمنطقة، أم هي جزء من حالة فوضى مقصودة، بما يخلق أثرًا سلبيًّا لتلك التَّحرُّكات على المدى البعيد؟!»[1].

نلاحظ اليوم، أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، أنَّ شبابنا وكهولنا يبخّسون هُويّاتهم أمام الآخر؛ بل ويهاجرون إلى الآخر مُتنكّرين لحضارتهم، غير معترفين بها، ولا آبهين بالتَّعرُّف إليها، بناء على حكم بالإدانة وتبرُّؤ غير مسبوق منها، يُعزِّزه واقع انتهاك الحقوق بالأوطان، والرَّغبة في التّماهي والذَّوبان في حضارة الآخر...

لكن، وفي ظلِّ الوضع اللَّامُتكافئ في موازين القوى بين البلد المهاجر منه والبلد المهاجر إليه، تظلّ كل هجرة تحتضن وتتعايش مع المعاناة المرتبطة بالتّبخيس الضّمنيّ والمُعلن عنه في مختلف المجالات، تواكبه وتوازيه اللَّامساواة، ثمَّ غياب تكافؤ الفرص المُتعدّد الأشكال. فتنتج الوضعيَّة انشطارًا في الهُويَّة وحقدًا دفينًا على العالم...

في بعض الأحيان، لا يتوقّف الأمر عند هذا الإحساس الدفين؛ بل يتعدّاه إلى التَّعبير عنه عبر أشكال من التَّطرُّف والانتقام...؛ إذ تنتج وضعيَّات الاختلال دومًا الخلل. ونرصد اليوم أيضًا بين أجيال الشّباب الحاليّة، موقف التَّبرُّؤ والخجل من الاعتراف بجنسيّته، وهُويَّة جواز سفره أمام الآخر الغربيّ عمومًا، الَّذي يكون لديه نزوع إلى تبخيس جنسنا، وتحقيره والتّعالي عليه. وفي المقابل، وفي ظلّ غياب التَّنوير... يكون لدى أغلبيّتنا نوع من النّزوع إلى تعظيم الآخر الغربيّ، والتغاضي عن أخطائه في حقّ ذاتنا الحضاريّة والفرديّة؛ وهو السُّلوك الَّذي يشترك فيه المواطن العادي مع المسؤول السِّياسيِّ على حدٍّ سواء... ونجد الصّنفين معًا يتنازلان عبر أشكال من السُّلوك، منها الرمزيّ والملموس؛ بل لقد رصدنا على مواقع التّواصل الاجتماعيّ ظاهرة غريبة يتمّ التَّطبيع معها: إنَّها سخرية بعض الفنَّانين ذوي الأصول المغاربيَّة، الَّذين يمارسون المهنة في فرنسا، من ثقافتهم وهُويّتهم؛ بل

1- عمرو الشوبكي وآخرون، الحركات الاحتجاجيَّة في الوطن العربيّ، مركز دراسات الوحدة العربيَّة، بيروت، 2014م، ص 43.

ومن جواز سفرهم، ويسخرون من كلّ ذلك بلغة فرنسيَّة، وأمام الملأ، ويتمّ بثّ ذلك على شاشات قنوات التلفزة.

بين الشَّباب المغاربيّ، على سبيل المثال، تظهر لنا أشكالًا مُتباينة من تبخيس الذَّات أمام الآخر، عبر السُّخرية من واقع الحال، والحطِّ من قدر الهُويَّة، وهو سلوك ينمّ عن مساعٍ مقصودة إلى ضرب الانتماء الوطنيّ وأبرزها ما لاحظناه من حرق لجوازات السّفر. كما تدخل في هذا الإطار، بعض التَّمثُّلات والصُّور النَّمطيَّة الَّتِي استبطنها الوعي الجمعيّ حول المواطن الغربيّ بوصفه الأكثر ذكاءً، والأكثر مصداقيَّةً، والتَّسليم المُطلق بأنّه هو الأرقى، والأكثر تحضُّرًا ...

في مقابل ذلك، يترسّخ في الوعي الجمعي السَّائد، نوع من تبخيس الذّات أمام الآخر، ونوع من الانبطاح عبر سلوكيّات تبدو مهينة أحيانًا... ولكل هؤلاء تمثّلات عجائبيّة حول ظروف العيش في الدول الغربيَّة، تمثّلات يرسخها ما رصدناه من سلوك، وممارسة لدى المهاجرين المغاربة العائدين لقضاء عطلهم في الوطن.

فهم يبدون نوعًا من السّخاء بوصفه تعويضًا عن المعاناة في بلد المهجر، وذلك التّعويض ذو أبعاد مادّيّة ورمزيّة، وكذلك نفسيّة أساسًا. ويُعدُّ العنصر النَّفسيّ هنا مُهمًّا؛ لأنَّه يعتمد وسيلة لإعادة المكانة للذّات وللهُويَّة المُتأزّمة بفعل توالي الضّربات الرمزيّة والفعليّة في بلدان المهجر. لكن ذلك التَّعويض، وفي ظلِّ غياب التّصريح بمضامين المعاناة، يتحوَّل إلى أحد أهمّ أشكال ترسيخ تمثُّلات الوعي الجمعيّ، وبناء تصوُّرات عجائبيَّة حول العالم الغربيّ.

فنلاحظ نتيجة لكلّ ما تقدَّم، بأنّ مسارنا الميكرواجتماعيّ يراكم، من دون وعي، أو إرادة مُسبقة، كل الآليَّات القادرة على ضمان إعادة إنتاج دونيَّة هُويّتنا، وحضارتنا، وسيادتنا، ومكانتنا، وترسيخها بين الأُمم، ناهيك عن القدرة على الفعل، أو التَّأثير في الاختيارات الماكروسياسيّة، أو الاقتصاديَّة الدَّوليَّة.

قد نتج من الوضع السّابق ذكره ميل إلى الاستقالليَّة بين شعوب عوالمنا وقادتهم، لدرجة أنّ فكرة التَّحالف بيننا أصبحت «في خبر كان»، وأصبحت المصالح الوطنيَّة تتحقّق عبر التَّوجُّه إلى الغرب...

يُضاف إلى ذلك، ما نرصده اليوم عن كثب على مستوى تصريحات مُثقَّفين ينتمون إلى حركات سياسيَّة أمازيغيَّة مغاربيَّة، وكذا بين بعض الشباب في منصَّات التَّواصل الاجتماعيّ الرقميّة، حيث نراقب نوعًا من التَّحوُّل على مستوى تحديد

الانتماء مقارنة بما اجتمعت حوله الحركات الوطنيَّة سابقًا.

يمكن الجزم بأنّ معظم الشّباب، بكل الأوطان العربيَّة والإسلاميَّة الأخرى، يعيش النّقلة نفسها محليًّا على مستوى اندثار الإحساس بالانتماء إلى المشترك الهُويّاتيّ والحضاريّ بيننا، ماعدا بعض الحالات، عندما يتعلق الأمر بزيارة بلد من تلك البلدان، حيث يصبح التّصريح بالمشترك جزءًا من تحقيق انخراط آني يحقّق متعة السفر... لكنه موقف لا يخلو من المفارقة.

سلطة فضاءات التّواصل الرّقمي من أجل نسق بديل

يعرف العالم اليوم تحوُّلًا نوعيًّا عميقًا غير مسبوق؛ بسبب الثّورة الرّقميّة والتّحوُّلات الَّتي تفرضها في مختلف المجالات. ويتحدّد الإشكال في كون المؤسّسات السِّياسيَّة لا تخطّط لمواكبة ذلك التغيير من أجل الاستفادة منه وتثمينه، وذلك لغياب الرؤى الإستراتيجيَّة في التَّخطيط.

لكن التغيير لا ينتظر القرار السِّياسيّ؛ بل إنّ هذا الأخير هو الَّذِي يجد نفسه مجبرًا على مواكبة التغيير. فقد أصبحت السُّلطات تضطر إلى إيجاد الحلول العاجلة للحركات الاحتجاجيّة الفئويّة الَّتِي تملأ مواقع التواصل الاجتماعيّ؛ بل إنّ الاحتجاج نفسه يتحوّل إلى قوّة ترافعيّة وطنيًّا ودوليًّا بفعل سهولة استقطاب المنخرطين وتبنِّيهم للقضايا، فيؤثر الرأي العام على مجرى العدالة، وكذا على عمليّة انتزاع المكاسب، وعلى إصدار القوانين، وإنصاف المظلومين، وإعادة النَّظر في المواقف، والقرارات...

فنلاحظ اكتساب الفضاء الرقميّ عبر مواقع التواصل الاجتماعيّ لسلطة التّأثير والتّغيير؛ لأنَّ المطالب والقضايا باتت علنيّة عارية أمام العالم، في حين تحرص البلدان على حماية صورتها؛ بل وتجميلها أمام الآخر.

مِنْ ثَمّ، فتعميم التَّنوير والدفاع عن الحقوق الفرديّة والجماعيّة، وكشف المستور على مختلف المستويات، أصبح أمرًا تعجّ به مواقع التَّواصُل الاجتماعيّ ومختلف فضاءات العوالم الرقميَّة، لدرجة ملامسة بدايات تشكُّل وعي جمعيّ شبابيّ يتجاوز الثَّوابت والمُسلّمات المُتوارثة، ويخلخل حتميَّة استمراريّتها؛ بل إنّ العالم أصبح أكثر من أيّ وقت مضى، قرية صغيرة تُلغى فيها المسافات بين المكوّنات، فنلاحظ تبادل التّأثير والتّأثُّر، وكسر حواجز الانتماء الَّتِي تفرضها الحدود الجغرافيّة

والسِّياسيَّة. ومِنْ ثَمّ، فالتَّحدِّي المطروح اليوم هو مدى قدرة المُؤسّسات السِّياسيَّة والمجتمعات على مواكبة ذلك التغيير وتثمينه؛ لكي لا يتجاوزها فينتج فوضى لا تُطاق...

الخاتمة

عمل الاستعمار على تقسيم عوالمنا، فخلق كيانات جديدة، وغيَّر معالم كيانات أخرى... فكانت الصَّدمة الَّتِي واكبتها حركات نهضويَّة عبر توجُّهات مُتباينة، وكان المدُّ القوميّ، ومحاولات الوحدة بين الدُّول هنا وهناك إحدى تمظهرات التَّصدّي للتَّخلُّف والانحطاط... لكن فشلت تيَّارات النّهضة في تصحيح المسارات بفعل تحدِّيات سياسيَّة، وأيديولوجيَّة داخليَّة وخارجيّة. وكذا، بفعل اختيارات قيادات داخل الدول العربيَّة الإسلاميَّة، وأيضًا لتضارب المصالح الداخليَّة مع سياسات إستراتيجيَّة لدول عظمى.

ثمَّ تواصلت هجرة الأدمغة، وعزوف المُثقّفين عن الانخراط في الشَّأن السِّياسيّ، كما تخلّفت الأحزاب السِّياسيَّة عن مواكبة التَّحدِّيات المُتجدِّدة... فاستمرَّ وضع التَّردِّي في ظلّ غياب خطط إستراتيجيَّة تجعل من حقوق المواطنين الأساسيّة ومن التّعليم المُؤسّس على التَّنوير أولويّة لأجل بناء مجتمعات عربيَّة في مستوى التَّحدِّيات.

خلاصة القول: إنّ الوضعيَّة الَّتِي نتعايش معها اليوم بين الأُمَم، صعبة ومعقّدة على جميع المستويات؛ سياسيًّا، واقتصاديًّا، وثقافيًّا، وكذا على مستوى السِّيادة والهُويَّة. لكن، يظلُّ الأمل في التّغيير والقدرة على إعادة البناء أمرًا مُمكنًا انطلاقًا من مدّ الجسور بين المُثقّفين في العالمَيْن: العربيّ، والإسلاميّ من أجل رسم خارطة طريق جديدة.

المصادر والمراجع

1. العربيّة:

- عبد الصمد بلكبير، النَّهضة وشروطها التّاريخيَّة، في الجامعة، (جريدة مغربيّة قديمة)، العدد 1، شتنبر، 1982م.
- عشماوي محمد سعيد، الإسلام السّياسيّ، دار سينا، القاهرة، 1987م.
- علي أومليل، في شرعيَّة الاختلاف، منشورات المجلس القوميّ للثَّقافة العربيَّة، الرباط، 2002م.
- عمرو الشوبكي وآخرون، الحركات الاحتجاجيَّة في الوطن العربيّ، نشر مركز دراسات الوحدة العربيَّة، بيروت، 2014م.
- محمد عبد الحميد حمد، الزّندقة والزّنادقة تاريخ وفكر، دار الطَّليعة الجديدة، دمشق، 1999م.

2. الأجنبيَّة:

- Kanza Kassimi, Des manifestations de la libre pensée dans le monde arabo-musulman, Presses Universitaires Lille, France, 2009.
- Universitaires Lille , France, 2009.
- Abdou Filaly- Ansary, L'Islam est-il hostile à la laïcité ?, éd Fennec, Casablanca, 1999.
- François Burgat, L'Islamisme en face, Découverte, Paris, 1996.
- Mohamed Chérif Ferjani, Islamisme laïcité et droit de l'homme, Harmattan, Paris, 1991.
- Abdou FilalyAnsary, l'introduction de la traduction de «l'islam et les fondements du pouvoir» de AliAbderrazik, éd Fennec, Casablanca, 1984.
- KanzaKassimi, Le Monde Arabe, Des deux Grandes transitions au nommé «Printemps Arabe», Imprimerie Emoutaki Printer, Mohammedia, Maroc, 2011.

- A. Badawi, L'humanisme dans la pensée arabe, in Revue StudiaIslamican°VI, presses de A. Bontemps, 1957, Paris, France .
- KanzaKassimi, Des manifestations de la libre pensée dans le monde arabo-musulman, op.cit.
- A. Badawi, revue Islamica n° VI, *op.cit.*